تطبيق للمستوى الدلالي

يقول الشاعر:

والشهرة وقفت تضحك في الطرقات
وتطلُّ بلا عينين على الأموات
وترشُّ زوالاً كانوا فيه، وعادوا فيه بلا رايات
(...)
والموت يموت، ويحيا فيه. ويرجع موتاً منه يعاف

فلو نظرنا إلى الأسطر الثلاثة الأولى من هذا المقطع، وجدنا أن ثمة صورة متنامية مؤلفة من استعارات جزئية متتابعة، ومن الواضح إن هذه الاستعارات ما هي إلا صورة لمستعار له واحد هو (الشهرة) المجردة، التي تم تشخيصها بإسناد أفعال بشرية لها بوصفها (وقفت تضحك) في السطر الأول، و (تطلّ) في السطر الثاني، و (ترشّ) في الثالث.

إلا أنها في حقيقة الأمر شهرة زائفة خاصة بالأموات الذين يحيون بأجسادهم في هذا العالم المؤلم، دون أن يحاولوا تغييره، كما يتضح في السطر الأخير من المقطع السابق. فالموت يموت، ثم يحيا ويموت مرة أخرى، وهي استعارة أيضاً بتشخيص الموت المجرد، من خلال إسناد أفعال بشرية له. وهو لم يعنِ هذا المعنى السطحي، وإنما أراد ما هو أعمق من ذلك: فمن الواضح أن الموت هنا مجازي وليس حقيقياً، فليس من الممكن للأموات أن يموتوا، لأنهم -كما ذكرنا- أحياءٌ لكن بحكم الأموات في عيشهم غير المجدي نفعاً، ما داموا لا يغيرون شيئاً من واقعهم.

ثم يردف قائلاً:

الضوء رياء
والفيء رياء
والنغم الحالم وترٌ مذبوح الزفرات

مبحوح الآهات

يترنح بين يدين بلا راحات

وبلا كاسات

مخدوع الشهوات

مفجوع اللّهوات

يتحرك في اللا شيء، بلا حركات

ويدور يدور... ولا يدري من أي فضاءٍ آت..

والروح التحم بكل خطاه.. وكان الموجة والمجداف..

ثمة أربعة تشبيهات بليغة في هذا المقطع الشعري ذُكِر طرفاها –المشبه والمشبه به- دون ذكر أداة التشبيه، ونلحظ تنافر الطرفين المشبه والمشبه به في التشبيهين الأول والثاني، فـ (الضوء) و (الفيء) الإيجابيان شُبِها بقيمة سلبية هي (الرياء)، فكيف لهما معاً وهما متضادان دلالياً أن يشبها بالشيء ذاته! ثم شبه (النغم الحالم) بعد ذلك بالوتر المذبوح، وهو التشبيه البليغ الثالث. كما نلمس هنا تحققاً للاستعارة مرة أخرى من خلال تشخيص النغم بوصفه حالماً، والوتر بوصفه مذبوحاً وله زفرات ومبحوح الآهات! وتتلقفه يدان ويترنح ويتحرك وهو صوت مجرد غير ملموس! ثم ينتهي أخيراً إلى تشبيه (الروح) المستدعى من عالم المجردات، بالموجة والمجداف المحسوسَين، وهو التشبيه البليغ الرابع، مما خلخل توقع القارئ.

وقراءة عميقة للصور المرسومة هنا جراء تقنيتي (التشبيه البليغ) و (الاستعارة)، تجعلنا نراها تدور حول النواة الدلالية التي سبقت الإشارة إليها في تحليل المقطع الأول من القصيدة ذاتها. إذ ما جدوى كل شيء مادام الواقع مأزوماً ومؤلماً ليس ثمة مَنْ يغيُّره!